

حنين بن اسحق

أحد بناء النهضة العلمية في العصر العباسي

الأستاذ شحادة الخوري

الخبير السابق في المنظمة العربية
للتربية والثقافة والعلوم

ثمة رواية عن أسباب حركة الترجمة في العصر العباسي، هي أشبه بالأسطورة، يرويها أبو الفرج محمد بن اسحق النديم في كتابه «الفهرست»^(١)، قال: «أحد الأسباب الذي من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من الكتب القديمة في البلاد العربية أن المأمون رأى في منامه كأن رجلاً أبيض اللون مشرباً حُمرةً واسعَ الجبهة، مقروناً الحاجب، أجلجَ الرأس (منحسر الشعر عن جانبي مقدم رأسه) أشهل العينين (يشوب بؤبؤ عينه حُمرة) حسنَ الشمائل جالسٌ على سريره. قال المأمون: وكأنني بين يديه قد ملئت له هبة، فقلت له: من أنت؟ قال: أنا أرسطاليس! فسررت به وقلت: أيها الحكيم أسألك؟ قال: سل، قلت: فما الحسن؟ قال: ما حسنٌ في العقل! قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن في الشرع، فقلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن عند الجمهور! قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم لائمٌ! وفي رواية أخرى، قلت: زدني، قال: من نصحك في المذهب فليكن عندك كالذهب، وعليك بالتوحيد! فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب». إن هذا الحلم، إذا صحَّ، لا يكون، في رأيي سبباً لاهتمام الخليفة العباسي المأمون بنقل كتب الإغريق الفلسفية والعلمية إلى اللغة العربية أو باعثاً عليه، بل على العكس من ذلك يكون هذا الحلم نتيجةً وأثراً لذلك الاهتمام وانعكاساً له في نفسه، وإشارة تدل على رغبة المأمون في الاطلاع على ثقافة

(١) ابن النديم: كتاب الفهرست - طبعة المكتبة التجارية الكبرى شارع محمد علي بمصر - ص 353.

اليونان ولاسيما فلسفة أرسطو، وكثيراً ما يكون الحلم تجسيداً لفكرة تراود الإنسان وتستحوذ على عقله أو رغبة مكبوتة يرغب صاحبها في تحقيقها.

ومن حقنا التساؤل: أكان ممكناً ألا يتوافر لذلك الخليفة المستنير الذي عرف بحرية الفكر والشغف بالمعرفة ذلك الاهتمام وتلك الرغبة؟ بل نقول: إنه لم يكن وحده يهتم باقتباس المعرفة ويرغب في اغتراف العلم من ينابيعه، بل كانت تشترك معه النخبة التي تكونت آنذاك في المجتمع العربي وتطلعت إلى حياة عقلية غنية بالمعارف المتنوعة. ثم إن المأمون لم يكن البادئ في بعث حركة الترجمة وهي الوسيلة الرئيسة في نقل المعرفة الإنسانية من لغة إلى لغة ومن أمة إلى أمة، ولكنه أكمل ما كان قد بُدئ به من قبل، ومنح هذه الحركة دعمه ورعايته فشطت في زمانه، واغتنت الثقافة العربية بما نُقل إلى العربية، وتقبَّل الفكر العربي معارف الشعوب السالفة وتمثلها، فكان ذلك منطلقه إلى الكشف والإبداع، فبنى العرب، بعد ذلك، وعلى أسس وطيدة، حضارة إنسانية شامخة كانت المشعل الوضاء في العالم مئات من السنين. أجل إنها حضارة امتدت في المكان بعيداً، من بغداد وبخارى وسمرقند في الشرق إلى فاس وقرطبة وطليلة في الغرب، وامتدت في الزمان بعيداً خلال سبعمائة عام، بين القرنين الثامن والخامس عشر للميلاد. ولئن كانت هذه الحضارة ثمرة تلاقي الحضارة العربية القديمة والدين الإسلامي والتراث الإغريقي والفارسي والهندي، فقد غدت ركيزة النهضة الأوروبية بعد أن نُقل نتاج العقل العربي إلى اللغة اللاتينية وغيرها من لغات الغرب.

وإذا كان حلم المأمون، كما ذكرنا، يصح أن يُعدَّ نتيجة لاهتمامه بترجمة علوم السابقين ورغبته في ذلك، لاسيماً في ذلك الاهتمام وتلك الرغبة، فما هي الأسباب الحقيقية إذن لانبعاث حركة الترجمة واستثمارها بالجهد والرعاية والمال؟

إننا نحاول، وبإيجاز كبير، إلقاء الضوء على أهم هذه الأسباب:

1- إن الإنسان بطبعه تواق إلى ارتياد المجهول واكتناه أسرار الكون، والعقل يلح في طلب المزيد من المعرفة وكشف ما استتر وراء حجاب. ثم فوق ذلك تأثر العرب المسلمون بالآية الكريمة: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» سورة الزمر (الآية 9) التي تحضُّ على طلب العلم وتجعل العلم سبب الرفعة والعلو، فحفُّوا إلى طلب العلم لاتقدهم عن هذا السعي مشقة ولا يصدهم عنه عناء، مرددين: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» سورة طه (الآية 114).

2- إن قيس المعرفة لا يخبو، ونور العلم لا ينطفئ، بل ينتقل المشعل من يد إلى يد. لقد شهدت العصور القديمة فتوحات كثيرة، فكان الفاتحون يدمرون حضارات الشعوب المغلوبة ويبعدون معالم ثقافتها، ولكن العرب لم يدمروا حضارة ولا أبادوا ثقافة بل حفظوا كل خير ومفيد في حضارات وثقافات من سبقهم، من أهل الأمصار التي دخلوها ثم عمدوا إلى نقل العلوم والمعارف إلى لغتهم فصارت جزءاً من ثقافتهم وبعداً من أبعادها، ثم بعد درس وتمثل واستيعاب أغنوا الثقافة الإنسانية بما اكتشفوا وأبدعوا، فأعطوا أضعاف ما أخذوا، وصبغوا كل نوع من أنواع المعرفة بلون عبقرتهم الفذة.

3- كان العرب في الجاهلية معجبين بما لديهم من شعر ونثر، وحسبك المعلقات السبع أو العشر، ثم وجدوا في القرآن الكريم آياً رائعاً وعقيدة راسخة وشريعة جامعة فاطمأنوا إليه. فلما جاء العصر العباسي، واختلط العرب بالأعاجم وسكان العراق والشام ومصر، ظهرت حاجة الدولة والمجتمع والأفراد إلى علوم الطب والفلك والحساب وغيرها فمالوا إلى نقلها ممن سبقهم من الأمم وجذّوا في ترجمتها إلى العربية إعجاباً بها وحرصاً على معرفتها.

4- ان الحركة الدينية قد بلغت آخر الدولة الأموية شأواً بعيداً، وتكلم المسلمون بالجبر والاختيار وتجادلوا فيما بينهم، كما تجادلوا مع النصارى واليهود، ونشط المعتزلة. وقد احتاج المسلمون في هذا الجدل إلى المنطق اليوناني الذي كان يتسلح به غيرهم، فتعلموه آلة للدفاع عن آرائهم. وهكذا عرفوا على فلسفة الإغريق وشجعوا على تعريبها.

5- وبعد فلسنا نجحد دور عبدالله المأمون بن الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور فهو فريد في تفتحته الذهني ونشاطه العقلي، وتوقه إلى الإحاطة بثقافات عصره، في وقت كان يملك فيه القدرة والسلطان والمال. يقول صاعد الأندلسي في كتابه: «طبقات الأمم^(١)»: «... لقد تَمَّ ما بدأ به جدّه المنصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه، واستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة... حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها». وربما كانت نزعة المأمون هذه مردّها اعتناقه المذهب العقلي الذي كانت تدين به المعتزلة، ولذا فقد وقرّ لبنت الحكمة جواً تسوده أخلاقيات الحكماء والعلماء من المحبة والتقدير والتسامح

(١) صاعد الأندلسي: كتاب «طبقات الأمم» بيروت - لبنان 1912 ص 47.

والحرية الفكرية .

هذا وثمة ملاحظتان مهمتان نبيينهما :

1- لقد شهد وادي النيل وأرض الرافدين أو بلاد ما بين النهرين : دجلة والفرات ، وبلاد كنعان وآرام وسواحل الشام : فينيقية ، وجميع ساكني هذه البلدان من العرب الساميين ، بزوغ المعرفة ثم تراكمها مع الزمن خلال ألوف السنين . وبعدئذ انتقل المشعل إلى بلاد الإغريق الذين أغنوا ماجمعوه واكتسبوه بالمنطق وحسن النظر وحكم العقل وسلامة الملاحظة والاستنتاج ، ثم دونوا ماتوصلوا إليه في كتب ومصنفات .

ثم انتقلت علوم الإغريق ، بل نفذت إلى الدولتين : الدولة البيزنطية - دولة الروم - والدولة السامانية - دولة الفرس - اللتين تسرَّب إليهما الوهن لاقتتالهما ، المرة تلو الأخرى ، وانتشرت شرقاً وغرباً : إلى الاسكندرية من جهة الغرب ، ولم تكن أحوالها آنذاك ، تؤهلها لاحتضان شعلة الفلسفة والعلم ، وإلى الرُّها ونَصِيبَيْن وجُنْدَيْسابور من جهة الشرق حيث كان يقيم السُريان - وهم الآراميون المنتصرون ، أقرب الأقوام إلى العرب وأبناء عمومتهم . وفي هذه المدينة الأخيرة جُنْدَيْسابور التي نزع إليها السُريان النساطرة في غضون النصف الأول من القرن السادس ، كان ملوك الفرس قد أنشؤوا في القرن الرابع مستشفى كبيراً يجاوره معهد دراسي ، ثم جاء الملك الكبير كسرى أنوشروان (531-579 م) فجعلها ، وهي عاصمة خوزستان ، غربي مدينة سوس ، أهم مركز ثقافي في ذلك الحين . وعندما أغلق جوستنيان عام 529 م المدارس الفلسفية في اليونان وبلاد الروم ، نزع إليها علماء اليونان ، فصارت مقاماً وملتقىً ومَحَجّاً لعلماء السُريان واليونان والفرس والهند . . .

وأخيراً كان استقدام الخليفة المنصور جرجيس بن بختيشوع إلى بغداد عام 767 م ، وكان رئيس الأطباء في مدرسة جنديسابور ، ليكون طبيبه الخاص ، حلقة الوصل المتيعة بين مجمَّع العلوم إذ ذاك وبين بغداد عاصمة الدولة العربية الاسلامية ، وفاتحة عهد الترجمة والنقل بتشجيع الدولة ورعايتها .

2- لم يفكر العرب البتَّة في أن يقرؤوا كتب الأقدمين الفلسفية والعلمية بلغة الأغيار ، لغة اليونان أو الفرس أو الهند ، أو حتى باللغة السريانية شقيقة العربية ، بل كان خيارهم مطلقاً في أن تنقل المعارف جميعها إلى لغة الضاد ، لغتهم هم ، لحبهم لها وإيثارهم إيها وحرمتها لديهم ، ولأنهم أدركوا بدهاة أن الذهن يكون أكثر تقبلاً للمعرفة واستيعاباً لها إن

طلبها المتعلم والدارس بلغته الأم التي ينطق بها طفلاً وتندرج على لسانه أصواتها وألفاظها وتخالط حسّه وشعوره.

إن بيت الحكمة الذي أنشأه المأمون ببغداد، لا يمثل بداية حركة الترجمة بل يمثل نضجها وازدهارها، ذلك أن هذه الحركة قد بدأت قبله بزمان مديد. ونستطيع أن نحدد مسيرة هذه الحركة في المراحل التالية:

الترجمة في عهد الأمويين:

إن الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية (ت 85 هـ) هو أول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء... «وكان هذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة»^(١). ويذكر الأستاذ محمد كرد علي^(٢): أن خالدًا قد استخدم أحد علماء مدرسة الاسكندرية «اصطفن» في نقل بعض الكتب اليونانية إلى العربية، وكانت في الطب. ويذكر المستشرق الإيطالي نيلينو: أن أول كتاب نقل من اليونانية إلى العربية هو كتاب أحكام النجوم المنسوب إلى هرمس الحكيم. ويذكر ابن القفطي^(٣): أنه في زمن مروان بن الحكم (64-65 هـ) نقل أول كتاب طبي إلى العربية وهو كتاب أهرن القس بن أعين، وهو طبيب عاش في الإسكندرية ووضع كتاباً طبياً باليونانية ثم نقله إلى السريانية حتى قام بنقله إلى العربية ماسرجويه الطبيب البصري. وذكر أحمد أمين^(٤): أن من أشهر المترجمين في العصر الأموي أيوب الزهاوي الذي ترجم كتباً يونانية في الإلهيات.

الترجمة في عهد العباسيين:

ازدهرت الترجمة في هذا العهد، ومرت بدورين:

الدور الأول - ما قبل المأمون:

كان المنصور الذي حكم اثنتين وعشرين سنة (136-158 هـ) شغوفاً بالطب والهندسة

(١) ابن النديم: المرجع السابق ص 352.

(٢) محمد كرد علي: كتاب «خطط الشام» ج 6 ص 24.

(٣) ابن القفطي: كتاب «تاريخ الحكماء» مكتبة المشى ببغداد ومؤسسة الخانجي بمصر بلا تاريخ ص 57.

(٤) أحمد أمين: كتاب «فجر الإسلام»، إصدار دار الكتاب العربي في بيروت، لبنان - الطبعة العاشرة، بلا تاريخ ص 162.

والفلك والنجوم. وقد راسل ملك الروم طالباً منه كتب الحكمة، فبعث إليه كتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات، وأنشأ ديواناً للترجمة، ونقل له جرجيس بن بختيشوع كتباً كثيرة من كتب اليونان الطبية.

واهتم هرون الرشيد (170-193 هـ) بالترجمة ووسع ديوان الترجمة وطلب من الروم بعد فتحه عمورية تسليمه المخطوطات الإغريقية القديمة. وأشهر ما ترجم في زمانه كتاب المجسطي لبطليموس ومعناه «الترتيب الكبير في علم الفلك» وعهد إلى يوحنا بن ماسويه بترجمة الكتب التي وجدها في أنقرة وعمورية في غزواته «الصوائف» ووضعه أميناً على الترجمة. وترجم الحجاج بن مطر في عهده كتاب اقليدس «أصول الهندسة».

الدور الثاني - عهد المأمون وما بعده:

كان عهد الخليفة المأمون الذي حكم عشرين عاماً (198-218 هـ) عهد الترجمة والبحث والتدقيق والمناظرة. وقد أرسل بعوثاً إلى القسطنطينية وبلاد الروم للحصول على الكتب، وكان حنين بن اسحق في بعض هذه البعث، وكان أحد شروط الصلح بينه وبين الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث أن ينزل له عن إحدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية. وكان بيت الحكمة الذي أنشأه بمثابة أكاديمية علمية، وكان مقسماً إلى أقسام متعددة، منها قسم للنقل ويتألف من أقسام أصغر حسب اللغات وقسم للتأليف، وقسم للبحث الفلكي والمَرَصِد. ويشرف على هذا البيت بأقسامه كلها عالم أو عالمان يدعى كل منهما صاحب بيت الحكمة، وكان لكل قسم مسؤول.

وقد رُتِبَ بيت الحكمة على مثال مكتبة الاسكندرية الهامة من حيث الأهداف والوسائل وطرائق العمل. ويغلب على الظن أن بيت الحكمة استمر في نشاط متفاوت طيلة عهد العباسيين، حتى دمره هولاءكو، فيما دَمَّر، عندما احتل بغداد عام 656 م.

وبعد فآين حنين بن اسحق من هذا كله، ومن يكون هذا العالم الذي أعطى الثقافة العربية، ترجمة وتأليفاً، مايعجز عن تقديمه العشرات من النابغين؟ وأين مكانه ودوره من هذا الجهد الكبير الذي استمر مايقارب قرناً ونصف قرن، فجعل زبدة المعارف العلمية القديمة بين أيدي العرب، يقرؤونها بلغتهم وينعمون النظر والتدقيق فيها، وجعل بغداد منارة الدنيا وبؤرة العلم في جو تسوده حرية الفكر ويلتقي فيها مفكرون وعلماء ومترجمون وباحثون من شتى الأجناس والملل واللغات!

ولد حنين بن اسحق المكنى بأبي زيد سنة 194 هـ الموافقة سنة 809 م^(١)، في مدينة الحيرة في جنوب العراق، والحيرة مدينة قديمة على نهر الفرات، كانت حاضرة لملوك المناذرة اللخمين، وازدهرت في زمانهم حضارياً وفكرياً، ثم أقيمت الكوفة على أنقاضها أو قريباً منها، بناها الخليفة عمر بن الخطاب في السنة السابعة عشرة للهجرة.

وكان حنين عربياً نصرانياً نسطورياً لأب كان يعمل في صناعة العقاقير والصيدلانيات بالحيرة، وينتسب إلى قبيلة عباد العربية. «وعباد الحيرة عدة بطون لقبيلة أو أكثر نزلت الحيرة وينسب إليها خلق كثير، ومنهم الشاعر المشهور عدي بن زيد العبادي، وقيل سموا عبادة أو عابدين لخضوعهم لملوك العجم»^(٢). أما ابن أبي أصيبعة فقد أثبتها بفتح العين «عباد».

نشأ حنين محباً للعلم شغوفاً بالمعرفة، فأراد أن يرتاد مناهل التعلم، فقصد مجلس يوحنا بن ماسويه في بغداد، وكان أشهر مجالس التعليم الطبي في ذلك الحين... وكان إذ ذاك في السابعة عشرة من عمره. وكم كان فرحه عظيماً عندما حملته القافلة من الحيرة إلى بغداد مقر الخلافة وحاضرة العلم، مقابل أن يعطي صاحبها قنينة من مرهم الكافور.

ويوحنا بن ماسويه الذي قصد حنين مجلسه ليأخذ عنه الطب هو أحد أطباء جنديسابور، وقد هاجر إلى بغداد في أول القرن الثالث للهجرة فكلفه الخليفة الرشيد بترجمة الكتب الطبية عن اليونانية ففعل، وكانت له تصانيف عديدة ومجلس يعلم فيه الطب.

ونقل أبي أبي أصيبعة^(٣) عن يوسف بن ابراهيم الطبيب، كما نقل غيره من المؤرخين أن حنيناً كان صاحب سؤال ويلج في سؤاله، وكان ذلك يصعب على يوحنا ويثقل عليه ويشير غيظه، وأن مما زاد جفوته لحنين أنه كان من أبناء الصيارفة أهل الحيرة، وكان أهل جنديسابور ومتطببوها بخاصة لا يكتفون لأهل الحيرة مودة ولا يجدونهم أهلاً لصناعة الطب لأنهم في نظرهم أهل تجارة فحسب.

(١) عاش حنين بن اسحق سبعين عاماً إذ توفي عام 264 هـ الموافقة 879 م.

(٢) ابن خلكان: كتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» من تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة ببيروت، بلا تاريخ ج 2 ص 205.

(٣) ابن أبي أصيبعة: كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» من منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت - لبنان 1965 شرح وتحقيق د. نزار رضا ص 258.

ويروى أن يوحنا قد غضب من حنين مرةً فقال له: «مالأهل الحيرة وتعلم صناعة الطب! اشترِ قلوساً، (وهي الجبال التي تشدُّ بها السفينة)، واقعد على الطريق وبع القلوس فإنها أعود عليك من هذه الصناعة. وقيل بل قال له: اشترِ فلوساً لاقلوساً لأن المتاجرة بالقلوس هي عمل الصيارفة الذي كان معروفاً في الحيرة. ثم أمر به يوحنا فأخرج من داره فخرج حنين باكياً مكروباً، وغاب عن بغداد سنتين أو أكثر.

ويذكر الأستاذ أحمد أمين^(١) أن حنيناً ذهب إذ ذاك إلى بلاد الروم بقصد تعلم اللغة اليونانية فتعلمها وأجادها، بالإضافة إلى إجادته اللغات: السريانية والعربية والفارسية. وكان تعلمه اليونانية مدخله إلى تعلم الطب في مصادره والبراعة فيه. ويضيف أنه بعد عودته من ديار الروم ذهب إلى البصرة ولازم الخليل بن أحمد الفراهيدي يأخذ عنه العربية، ويروون أنه حمل كتاب «العين» المنسوب للخليل إلى بغداد. وسبق أحمد أمين إلى هذه الرواية ابن جلدل في كتابه: «طبقات الأطباء والحكماء» إذ قال: «ونهض من بغداد إلى أرض فارس، وكان الخليل بن أحمد النحوي بأرض فارس فلزمه حتى برع في لسان العرب، وأدخل كتاب العين بغداد» وكرّر هذه الرواية كثير من المؤرخين العرب والأجانب وقد فاتهم أن الخليل قد توفي عام 170 هـ أي قبل مولد حنين بأربع وعشرين سنة! بيد أن الحقيقة التي لا مراء فيها أن حنيناً قد أتقن العربية وأجادها مفردات وقواعد وأسلوباً.

ويروي يوسف بن ابراهيم الطبيب أنه، بعد هذا الوقت، أي بعد سنتين من غياب حنين أبصر إنساناً له شعر قد جلله، وقد ستر وجهه عن يوسف ببعضه، وهو يردد شعراً لهوميروس باليونانية فأشبهت نغمته عندي نغمة حنين. فقال يوسف: هذا حنين، فأجابه الشاب: لو علمت أنك تفهمني لاستترت عنك، وأنا أسألك أن تستر أمري. ويقول يوسف: فبقيت أكثر من ثلاث سنين وأظنها أربعاً ولم أره.

ويتابع يوسف روايته فيذكر أنه بعد هذه المدة دخل يوماً على جبرائيل بن بخنيشوع، وكان عنده حنين يطلعه على ما ترجم من كتاب جالينوس في التشريح، فأظهر جبرائيل إعجابه بالترجمة وكلم حنيناً بالتبجيل وتوقع له التفوق على أقرانه من المترجمين. فأخذ

(١) أحمد أمين: كتاب «ضحى الاسلام» إصدار دار الكتاب العربي في بيروت - لبنان - الطبعة العاشرة، بلاثاريخ، ج 1 ص 283.

يوسف النص المترجم ودفعه إلى يوحنا بن ماسويه الذي سبق له أن استصغر شأن حنين، فأخذته الدهشة من حسن الترجمة وقال ليوسف: «أترى المسيح أوحى في دهرنا إلى أحد؟ ليس هذا الإخراج إلا إخراج مؤيد بروح القدس» فقال له يوسف: «هذا إخراج حنين بن اسحق الذي طرده من منزلك وأمرته أن يشتري قلوساً (أو فلوساً) فعجب يوحنا وسأل يوسف التلطف لإصلاح مابينهما ففعل ذلك. ثم إن حنيناً لازم يوحنا بن ماسويه منذ ذلك الوقت وتلمذ له واشتغل عليه بصناعة الطب ونقل له كتباً كثيرة من كتب جالينوس، بعضها إلى السريانية وبعضها إلى العربية.

تميز حنين بحركة دائمة وعزيمة لا تكِل. يترجم بنفسه، ويشرف على جماعة تعمل بإرشاده. وقد عينه المأمون في بيت الحكمة الزاخر بالكتب التي جلبت من آسيا الصغرى والقسطنطينية، فلم يكتف بها بل رحل في نواحي العراق وسافر إلى الشام والاسكندرية وبلاد الروم بجمع الكتب النادرة.

وإزاء ذلك كله، يقف المأمون، الحاكم اليَقِظ، يُجْزِي الخَيْرَ بمثله ويجزل لحنين المكافأة والمال لأنه كان على يقين أن هذه العلوم التي عمل على نقلها وترويجها أغلى من كل مكافأة ومال. وذكر ابن أبي صبيعة^(١): «أن المأمون كان معجباً بحنين إعجاباً جعله يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى اللسان العربي مثلاً بمثل». ويقول متابعاً: «ووجدت من هذه الكتب كتباً كثيرة، وكثير منها اقتنيت وهي مكتوبة بالكوفي بخط الأزرق كاتب حنين، وهي حروف كبار بخط غليظ في أسطر متفرقة وورقها: كل ورقة منها بغلظ ما يكون من هذه الأوراق المصنوعة يومئذ ثلاث ورقات أو أربع، وذلك في تقطيع مثل الثلث البغدادي. وكان قصد حنين من ذلك تعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه لأجل ما يقابل وزنه دراهم. وكان ذلك الورق يستعمله بالقصد، ولا جرم أنه لغلظه بقي هذه السنين المتطاولة من الزمان».

ويستفاد من هذا النص أن المخطوطات التي أملأها حنين وكتبت في القرن الثالث الهجري بقيت بذاتها أو بقي قسم منها على الأقل إلى زمن صاحب «طبقات الأطباء» وهو القرن السابع الهجري فراها وحدثنا عنها. أما أن حنيناً قد كتب بحروف كبار وخط غليظ على ورق سميك وبأسطر متفرقة طمعاً في المال، فذلك لا يمثل الحقيقة تماماً إذ حل في

(١) ابن أبي أصيبعة: المرجع السابق، ص 260 وص 270.

عهده الورق المصنوع من القطن والكتان محل ورق البردي السميكة الذي كان يشتري من مصر بفضل نشوء صناعة الورق على أيدي أسرى الحرب الصينيين الذين أسكنوا مدينة سمرقند. وقد يكون حين فضل الورق الغليظ على الناعم منه حفاظاً على المخطوطات من التلف والتمزق وآثر الحرف الكبير والسطور المتفرقة حرصاً على تيسير القراءة، وعلى أية حال لم يكن للمأمون فيما يبدو إلا أن يقابل بذل الجهد ببذل المال، والعلم لعمرى أغلى من المال وأبقى.

ويؤكد المؤرخون الثقات أن العصر الذهبي للترجمة إنما هو عصر حنين بن اسحق، ذلك أن الترجمات التي تمت قبله لم تكن دقيقة، بل وصفها حنين مراراً بأنها رديئة وسيئة، إلا أنها كانت البداية في هذا المضمار، وليس من أمر يبدأ مكتمل الشروط والأوصاف. أما حنين فقد تجاوز تلك المرحلة وبلغ بعبقريته مرحلة النضج وصار النقل على يديه وأيدي تلاميذه أكثر دقة وأوضح معنىً وأجود تركيباً وأكثر إبانة.

يذكر المستشرق مايرهوف أن حنيناً ترجم إلى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتاباً وترجم إلى العربية منها تسعة وثلاثين، وأصلح ما ترجم تلاميذه وهي ستة إلى السريانية ونحو من سبعين إلى العربية، وأصلح معظم الخمسين كتاباً التي كان قد ترجمها إلى السريانية سرجيس الراسعيني وأيوب الرهاوي وسواهما من الأطباء المتقدمين. ويعد صاحب الفهرست مائة واثنى عشر كتاباً لجالينوس نقلها حنين وغيره من المترجمين إلى العربية، مع ملاحظة أن بعضها لا يتجاوز مقالة أو اثنتين وبعضها مطول، وأن بعضها قد ترجم أكثر من مرة، وأن حنيناً كان ينقل من اليونانية إلى السريانية والعربية ومن السريانية إلى العربية. ونذكر فيما يلي بعضاً من مترجماته على سبيل المثال^(١):

1- كتاب فينكس أي الفهرست: وهو مقالتان لجالينوس الأولى ذكر فيها كتبه في الطب، والثانية ذكر فيها كتبه في الفلسفة والمنطق والبلاغة والنحو.

ترجمه أيوب الرهاوي إلى السريانية ثم ترجمه حنين إليها أيضاً لداود المتطبب، ثم ترجمه إلى العربية لأبي جعفر محمد بن موسى. ويذكر حنين أنه أضاف مقالة ثالثة فيما ترك جالينوس ذكره من الكتب التي وضعها وأسباب ذلك.

(١) د. ماهر عبدالقادر محمد: حنين بن اسحق - العصر الذهبي للترجمة - دار النهضة العربية للطباعة والنشر في بيروت 1987 ص 77 وما بعدها.

2- كتاب الفرق: قال صاحبه جالينوس: «إنه أول كتاب يقرؤه من أراد تعلم صناعة الطب، وغرضه فيه أن يصف مايقوله كل واحد من فرقة أصحاب التجربة وأصحاب القياس وأصحاب الحيل في تثبيت ما يدّعي والاحتجاج له والردّ على من خالفه، وكيف الوجه في الحكم على الحق والباطل منها».

ترجمه إلى السريانية ابن سهدا من أهل الكرخ ببغداد، وكان ضعيفاً في الترجمة، ثم ترجمه إليها حنين وهو في العشرين من عمره، ثم صحّح الترجمة عندما اجتمعت لديه عدّة نسخ من الكتاب، وأخيراً ترجمه إلى العربية لأبي جعفر محمد بن موسى.

3- كتاب الصناعة الصغيرة: قال جالينوس في أوله: «إنه أثبت فيه الشرح والتلخيص لغيره من الكتب، وأن مافيه بمنزلة النتائج لما فيها» وهو مقالة واحدة.

ترجم إلى العربية ترجمات متعددة: واحدة لسرجيس الراسعيني ولم يكن ضليعاً في الترجمة، وأخرى لابن سهدا، وثالثة لأيوب الرُّهاوي، ثم ترجمه حنين لداود المتطبب ثم لأبي جعفر محمد بن موسى.

4- كتاب النبض الصغير: وهو مقالة واحدة، يعدد فيها صاحبه جالينوس أصناف النبض، ويصف الأسباب التي تغيّر النبض ما كان منها طبيعياً، وما كان منها ليس بطبيعي وما كان خارجاً في الطبيعة.

ترجمه إلى السريانية ابن سهدا، ثم ترجمه حنين إلى السريانية ثم إلى العربية.

5- كتاب جالينوس إلى اغلوكن (فيلسوف يوناني) - وكلمة اغلوكن تعني الأخضر، وهو مقالتان، في الأولى يصف الحمّيات التي تخلو من الأعراض الغربية، والحمّيات التي معها أعراض غريبة. وفي الثانية يصف دلائل الأورام ومداواتها.

ترجم هذا الكتاب سرجيس الراسعيني إلى السريانية ثم ترجمه حنين مرتين أولاهما إلى السريانية لسلمويه والثانية إلى العربية لأبي جعفر محمد بن موسى.

6- كتاب في العظام: وهو مقالة واحدة في التشريح يصف فيها كل واحدة من العظام بنفسها ثم يبين كيف يكون اتصالها بغيرها.

ترجمه سرجيس الراسعيني إلى السريانية ترجمة غير دقيقة ثم ترجمه حنين إلى هذه اللغة ليوحنا بن ماسويه، وإلى العربية لأبي جعفر محمد بن موسى...

هذا في ميدان الترجمة، وأما في ميدان التأليف، فإن حنيناً كان كذلك طويل الباع وافر العطاء. وقد ذكر له ابن أصيبعة بكثير من الدقة والتفصيل كتبه المؤلفة وعددها واحد

وتسعون كتاباً، ومن أهمها: كتاب المسائل وهو كتاب طبي مهم جمعه حنين في طروس مدة حياته ثم إن حبيش بن حسن الدمشقي تلميذه وابن أخته رتب الباقي بعده وزاد فيه من عنده بما أثبتته حنين في دستوره، ولذا عنوان الكتاب «المسائل لحنين بزيادات حبيش الأعسم أو الأعمش (الضعيف البصر)».

وقد رتب الكتاب على سؤال وجواب وهذا الكتاب مطبوع في ليدن بالمانيا عام 1913 مع ترجمة المانية وملحوظات بقلم الدكتور فيليب جود هلف. ومن مؤلفاته الهامة كتاب «العشر مقالات في العين» الذي يقول حنين عنه في المقالة الأخيرة: إنني قد ألّفت في العين منذ نيّف وثلاثين سنة، مقالات مفردة، نحوت فيها إلى أغراض شتى سألتني تأليفها قوم بعد قوم. ثم إن حبيشاً سأله أن يجمع له ذلك وهو تسع مقالات ويجمعه كتاباً واحداً ففعل وأضاف حنين إليها مقالة عاشرة عن الأدوية المركبة التي ألفها القدماء وأثبتوها في كتبهم لعلل الدين . . . وقد أصدر المستشرق ماكس مايرهوف نشرة محققة لهذا المؤلف بالعربية والانكليزية عام 1928 في القاهرة. ومن مؤلفاته أيضاً كتاب في العين، وكتاب في تركيب العين، وكتاب في النبض ومقالة في ضيق النَّفْس ومقالة في الصرع، وكتاب في الحمّيات، وكتاب في قوى الأغذية، وكتاب في البقول، ومقالة في حفظ الأسنان واللثة، وكتاب في امتحان الأطباء، وكتاب الترياق، واختصار الستة عشر كتاباً لجالينوس . . .

ويلاحظ، وهذا أمر في غاية الأهمية، أن ترجمات حنين وتأليفه لم تقتصر على موضوعات الطب، بل تعدته إلى موضوعات أخرى متنوعة، فنجد بين ترجماته: كتاب جوامع افلاطون، كتاب الأخلاق، كتاب البرهان، كتاب المدخل إلى المنطق. ونجد بين مؤلفاته: مقالة في المد والجزر، كتاب أفعال الشمس والقمر، كتاباً في خواص الأحجار، كتاب تولد النار من حجرين، كتاباً في إدراك حقيقة الأديان

إن حنيناً من هؤلاء الموسوعيين الكبار الذي طلبوا المعرفة وجروا وراءها وأظهروها للناس، وكان هذا دَيْدَنهم من المهد إلى اللحد. لقد شغل في أعظم كتاب عن تاريخ الطب العربي لمؤلفه لوسيان لوكليز^(١) اثنتي عشرة صفحة استهلها المؤرخ بقوله: «إن حنيناً

(١) لوسيان لوكليز: كتاب تاريخ الطب العربي - الجزء الاول ص 139 - 152 وقد طبعه بباريس الناشر ارنست لورو عام 1876 وأعادت طبعه وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية للملكة المغربية - الرباط 1980.

أعظم شخصية في القرن التاسع للميلاد، بل إنه من أكثر رجال التاريخ ذكاءً وأحسنهم خلقاً».

ولعلنا نتساءل، بعد الذي سقناه، هل تقوم أهمية ما أدّاه حنين وشهرته الواسعة على نوعية الموضوعات الطبية والفلسفية والعلمية التي ترجمها أو ألفها أم على حجم ما ترجم وألف؟

وأراني أجيب إن لنوعية الموضوعات التي عالجها حنين، ترجمةً وتأليفاً، وحجم ما نقل وصحح وألف دوراً مهماً بؤاه المنزلة الرفيعة التي أدركها، ولكن دوراً آخر هو مستحق له كذلك، يعود إلى اللغة السليمة التي دوّن بها ترجماته ومؤلفاته والمصطلحات الجديدة التي اصطنعها، وإلى الطريقة التي اتبعها في الترجمة والمنهج الذي التزم به.

إن الترجمة ليس بالأمر الهين اليسير، إذ هي نقل لمعانٍ، من لسان إلى لسان، ينبغي ألا تختلف زيادة أو نقصاناً، أو تنحرف عن مسارها أو يعسر على القارئ فهمها، بمباني يجب أن تحفظ لتلك المعاني مضامينها ومراميها، بلا إغراب في اللفظ أو تعقيد في الصياغة أو وهن في التركيب.

ولقد أجمعت الآراء على ضرورة أن تتوافر للترجمة شروط ومستلزمات حتى تنجو من الزلل وهي أن يكون المترجم متقناً لللغتين المنقول منها والمنقول إليها إتقاناً جيداً لا يعنونه خلل، وأن يكون مختصاً في الموضوع المترجم أو عارفاً به على وجه سليم وكاف، وأن يكون بيانه اللغوي بمستوى علمه بالموضوع، وأن يكون عارفاً بأسلوب المؤلف وبالألفاظ والعبارات التي يستعملها.

ولهذا لم يكن ممكناً أن تولد الترجمة في ذلك العصر مكتملة الجودة والإتقان، وكان لابد أن تمرّ بأطوار متعاقبة حتى تبلغ مايراد لها أن تبلغ من الدقة وحسن البيان. وقد كان لحنين الفضل في إبلاغها المستوى القريب من الكمال فوسم عصره بالعصر الذهبي للترجمة.

وعرضت للمترجمين مشكلة المصطلح العلمي، ولم تكن مواجهتها بالأمر اليسير، وقد اضطر المترجمون في بداية الأمر إلى استخدام الألفاظ اليونانية كما هي، فقالوا مثلاً الارتماطريقي والفيزيكا وقاطيغوراس واسطقس، حتى جاء بعدهم آخرون فأوجدوا مقابلات عربية فقالوا: الحساب والطبيعة والمقولات والعنصر. وقالوا: السولوجسموس والريطورقي والبيوطيقي حتى قوّم آخرون عوج هذا المنهج فقالوا: القياس والخطابة

والشعر .

وهكذا كان العمل يجري بلا هوادة أو توقف، ويتم بصورة تصحيح أو معاودة، ابتغاء الوصول إلى الأفضل والأكمل .

ويذكر الدكتور وائل الخوري^(١) في هذا الصدد مايلي: «أما تعريب المصطلحات العلمية فأرى أنه الوسام الكبير الذي يحمله حنين على صدره بجدارة، ذلك أن التراجمة قبله كانوا يبقون المصطلح اليوناني كما هو، وحتى يوحنا بن ماسويه، أستاذ حنين ومعاصره، كانت كتبه مليئة بالألفاظ اليونانية، بينما نلمس في كتاب المقالات العشر في العين المصطلح العربي قد سيطر في كل الأبحاث حتى ليكاد والمرء يشعر أنه يقرأ كتاباً طبياً عربياً رفيع المستوى من الناحية اللغوية.

وهذا يدفعنا إلى التساؤل: هل هذه المصطلحات هي من وضع حنين بالذات أم أنها كانت موجودة عند العرب فجاء حنين فحدد مدلولاتها... ويتابع: أرى أن الغالبية العظمى من الكلمات المتصلة بالعين هي من وضع حنين مثل: الشبكية والعنبية والرطوبة الزجاجية والبيضية والقزحية والقرنية والملتحمة وكذلك أسماء الأمراض كالشعيرة والشترة لم تكن متداولة قبله. وقد تكون بعض الأسماء موجودة في تراث العرب كالورم والرمد والقرحة، إلا أنها كما يظهر كانت كلمات عامة، وأما الكلمات الاختصاصية فيرجح أن يكون حنين هو الذي وضعها أو ترجمها. وهنا تجدر الإشارة إلى تسمية السرطان حيث يرجح بشدة أن يكون حنين هو أول من استعملها - ويؤيد هذا الرأي الدكتور سامي حمارة مؤرخ الطب في مؤسسة سميتونيان الشهيرة بواشنطن.

ويعدد الأمير مصطفى الشهابي^(٢) عشرات المصطلحات الجديدة التي دخلت اللغة العربية في ذلك الحين، في كل علم من العلوم ويقول: «... من الطبيعي أن تؤدي ترجمة هذه العلوم إلى خلق مصطلحات جديدة دخلت اللغة العربية واندمجت في جملة ألفاظها، ففي الطب مثلاً قالوا: الجراحة والتشريح والكحالة والصيدلة، وسموا بعض الأمراض بمثل السرطان والخانوق والذبحة والربو والاستسقاء وذات الجنب والبواسير، إلى آخر

(١) د. وائل الخوري: «كتاب المقالات العشر في العين» وهو رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الطب من كلية الطب بجامعة دمشق 1975 بإشراف الأستاذ الدكتور نشأة حمارة.

(٢) مصطفى الشهابي: «كتاب المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث»، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ط2 منقحة ومزودة 1965 ص24.

ماوضعوا من مثات الألفاظ في أنواع الأمراض وأعراضها وأدويتها ومداوتها. . . .» .
وأما الطريقة التي اتبعها في الترجمة فهي إلى الصواب أقرب. ويذكر صلاح الدين الصفدي أنه تميزت آنذاك طريقتان: الأولى طريقة يوحنا بن البطريق وابن ناعمة الحمصي وغيرهما وهي أن ينظر المترجم إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية فيأتي بمفردة عربية ترادفها في الدلالة على المعنى، ثم ينتقل إلى كلمة أخرى حتى يأتي على جملة مايريد، وأما الطريقة الثانية فهي طريقة حنين ابن اسحق ومن تتلمذ له أو اقتدى به، وهي أن يحصل المترجم معنى الجملة في ذهنه ثم يعبر عنها بجملة تطابقها في المعنى سواءً أساوتها في الألفاظ أم خالفتها.

قال سليمان البستاني في مقدمته لترجمة الإلياذة^(١): « إن هذين الطريقتين اللذين أشار إليهما الصلاح الصفدي منذ زهاء ستة قرون هما المذهبان المعول عليهما في النقل حتى أيامنا، وليس وراءهما مذهب ثالث في التعريب الصحيح» وقد سار البستاني على المذهب الثاني في ترجمته الإياذة هو ميروس أي على طريقة حنين، وما تزال هذه الطريقة هي المعتمدة حتى يومنا هذا لأنها تساعد على نقل المعنى بدقة وتجعل النص المنقول قريباً في معناه من الأصل أو مماثلاً له في المعنى.

وأما المنهج الذي سار عليه حنين فهو يعتمد على مايلي: 1- جمع عدة مخطوطات للأصل الواحد ومقارنتها ببعضها، واختيار الأفضل. 2- تأدية المعاني بدقة وبأسلوب عربي رصين. 3- يتنبه لاستعمال أدوات الربط فيميز مثلاً بين الواو والفاء، والفاء وثم، وينتبه إلى الوصل والفصل ويحسن استعمال حروف الجر. 4- يعيد قراءة النص المترجم بمعزل عن الأصل ويتخلص من الشوائب المحتملة. 5- يضع نفسه حكماً مكان القارئ الذي لا يعرف النص الأصلي ولا اللغة التي ترجم منها.

إنه شديد الإخلاص للعلم، ويحترم المؤلف والقارئ، وهو شغوف بالإتقان والتجويد. . . إنه امتداد وترويج للمدرسة السريانية - الإغريقية في الترجمة.

وقد يحسن بنا، بعد هذا الشرح أن نسمع لغة حنين العالم والأديب، التي تجمع بين الدقة والوضوح، والرفقة والبلاغة.

(١) سليمان البستاني: الإلياذة ج 1 ص 76.

يقول في كتاب «العشر مقالات في العين»^(١) عن تشريح العين ووظيفتها: «إعلم أن كل عضو من الأعضاء المركبة له فعل خاص له أُعِدَّ وهَيَّء، وله أجزاء كثيرة مختلفة في حالاتها. وليس يفعل ذلك الفعل بجميع أجزائه بل بواحد منها. وأما سائر الأجزاء فإنما أُعدت لذلك الجزء الذي به يكون الفعل» ثم يقول: «إن الرطوبة الجلدية - ويعني الجسم البلوري - هي مركز العين وبها يتم الإبصار... وأما ما ذكر من أن موضعها في وسط العين فذلك دليل على أن جميع ماسواها مما في العين إنما خلق لها إما ليدفع عنها آفة وإما ليؤدي إليها منفعة».

ويتكلم عن العصب الباصر الذي نسميه اليوم العصب البصري، منذ منشئه من الدماغ وحتى العين فيقول: «... اعلم أن الدماغ عين كل حس وكل حركة، ومنه تجري قوة الحس وقوة الحركة في العصب إلى جميع الأعضاء الحساسة والمتحركة. فالعين عضو حساس متحرك فلذلك يجيئها من الدماغ عَصَبَتَان: أما الواحدة فصُلْبَةٌ بها تكون حركتها، وأما العصبية الأخرى فليُتَنَ مجوفة وليس في البدن عصبية مجوفة سواها، وذلك لما احتاجت إليه العين من الروح النفساني ليكون به البصر، وعلى الدماغ حجابان أحدهما رقيق ليُنَ والآخر غليظ صُلْب. فأما الدقيق اللين فإنه شبيه بالمشيمة لكثرة ما فيه من الأوردة والعروق ومنفعته للدماغ أن يغذيه بما فيه من الأوردة والعروق وأن يوقيه، وأما الغليظ الصُلْب فإنه يوقِي الدماغ فقط ويحوطه من آفة عظم الرأس المجاور له...» ولعل هذا الكتاب أول كتاب منهجي مزود بالرسوم في طب العيون.

وفيما يلي مقطع من الحوار الذي دار بين الخليفة الواثق بالله (227-242 هـ) الذي كان محباً للنظر مقرباً للعلماء ومكرماً لهم، وبين حنين، في حضرة لفيف من الأطباء^(٢). قال الواثق: «ما أول آلات الغذاء في الإنسان؟ قال حنين: «أولى آلات الغذاء الفم وفيه الأسنان، والأسنان اثنتان وثلاثون سنناً، منها في اللُحْي الأعلى ست عشرة سنناً، وفي اللُحْي الأسفل كذلك، ومن ذلك أربع في كل واحد من اللُحْيَيْن عراض محددة الأطراف يسميها الأطباء من اليونانيين القواطع، وذلك أن بها يقطع ما يحتاج إلى قطعه من الأطعمة

(١) حنين بن اسحق: كتاب «العشر مقالات في العين» ص 28، 29 من «المقالة الأولى» في رسالة د. وائل الخوري المذكورة سابقاً.

(٢) المسعودي: كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج 4، القاهرة 1958 ص 80 - 83.

اللينة كما يقطع هذا النوع من المأكول بالسكين، وهي الشنايا والرّباعيات، وعلى جنبي هذه الأربعة في كل واحد من اللّحيتين سنّان رؤوسهما حادة وأصولهما عريضة، وهي الأنياب... وقال الواثق: فما الأشياء المغيرة للهواء؟ قال حنين: خمسة وهي أوقات السنة، وطلوع الكواكب وغروبها، والرياح، والبلدان، والبحار...»

ويشاء القدر أن يتوافر لحنين بن اسحق من سمو الخلق وصحة العقيدة ونزاهة الضمير ماتوافر له من الفطنة والذكاء والألمعية والجد والمثابرة والصبر.

ونسوق هذه القصة التي وقعت له إبان خلافة المتوكل على الله (232-247 هـ) يقول ابن العبري^(١): «ولم يزل أمر حنين يقوى وعلمه يتزايد وعجائبه تظهر في النقل والتفاسير، حتى صار ينبوعاً للعلوم ومعدناً للفضائل». واتصل خبره بالمتوكل فقرّبه وأقطعه إقطاعات حسنة وأراد امتحانه كيما يتأكد بأنه ليس من أعدائه إذ كان يخامره الشك بأن ملك الروم ربما عمل شيئاً من الحيلة به - لدراسته في بلاد الروم مدة - وكان لا يستعمل دواءً يصفه له إلا بعد أن يشاور غيره بشأنه.

فاستدعاه يوماً وخلع عليه وأحضر توقيعاً بخمسين ألف درهم فشكر له حنين هذا الصنيع، فقال له المتوكل: أريد أن تصف لي دواء يقتل عدواً نريد قتله، ولا يمكن إشهاره بل نفعل ذلك سراً. فقال له حنين: يا أمير المؤمنين إنني لم أعلم إلا الأدوية النافعة وما علمت أنك تطلب مني غيرها، فإن أحببت أن أمضي وأتعلّم فعلت. فقال الخليفة: هذا أمر يطول وهذّده ورغبه دون جدوى. عندئذٍ أمر الخليفة بحبسه في بعض القلاع ووكل به من يوصل خبره إليه وقتاً بوقت ويوماً بيوم.

ومكث حنين في حبسه سنة ينقل ويفسر ويصنّف... وبعد ما أمر الخليفة بإحضاره، وأحضر مالا للترغيب وسيفاً ونطعاً^(٢) للترهيب، وقال له: لا بدّ مما قلته لك فإن فعلت فزت بهذا المال، وإلّا تمّ تَعْلُ قتلتك شر قتلة. فقال حنين: قلت لأمر المؤمنين إنني لم أحسن إلا الشيء النافع، فقال له الخليفة: فإني أقتلك. قال حنين: لي رب يأخذ بحقي غداً في الموقف الأعظم، فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل.

(١) ابن العبري: كتاب «تاريخ مختصر الدول» تحقيق الأب انطون صالحاني - بيروت 1958 ص 144.

(٢) النطع: بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بالاعدام أي بالقتل ويجوز أن يقال: النطع والنطع جمع أنطاع ونطوع وأنطع.

فتبسم المتوكل آنئذ إذ رأى تصميمه، وقال له: طُبْ نفساً يا حنين وثق بنا فقد طلبنا منك ما طلبنا لامتحانك لأننا حذرنا كيد الملوك، فقبَّل حنين الأرض وشكر له. فقال له الخليفة: يا حنين ما منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق عزيمتنا في الحالين؟ قال حنين: شيان هما الدين والصناعة. فقال له الخليفة وكيف؟ قال حنين: الدين يأمرنا بفعل الخير مع أعدائنا فكيف مع أصحابنا وأصدقائنا، والصناعة - صناعة الطب - تمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم، فلم أودَّ أن أخالف هاتين الشريعتين، ولو قتلني لأثابني الله... وبهذا الموقف سرَّ المتوكل منه وخلع عليه وخرج من عنده وهو أحسن الناس حالاً وجاهاً^(١).

هذا وإن النجاح الذي أحرزه حنين قد ملأ الصدور عليه غيظاً وأوغرها حقداً، ولا سيما لدى أقرب الناس إليه من المتطبيين من أهل المذهب (كالطيفوري وبخيشوع بن جبرائيل) الذين تعلَّم أكثرهم على يديه ونشؤوا قدامه، فدسُّوا عليه الدسائس ورموه بالزندقة والإلحاد ووشوا به لدى المتوكل وتآمروا لقتله. وما زالوا في السوء فاعلين حتى نكبه المتوكل واعتقله وضيق عليه وصادر ماله وكتبه وسجنه في داره ستة أشهر كان ينزل به الضرب والعذاب، حيناً بعد حين. وما زالت هذه حاله حتى انكشفت المؤامرة وارتد الكيد إلى نحور الوشاة فباؤوا بالفشل والعار ورضي المتوكل على حنين وأعاد إليه أمواله وكتبه ودوره وأرزاقه وجعله رئيس الأطباء في بغداد...

هذا وليس بدعاً أن تتكون حول حنين مدرسة تضم جمهرة من المترجمين والمؤلفين تعمل معه وتحت إشرافه في حياته وتستمر في العمل من بعده. قال المستشرق مايرهوف^(٢): «كان لحنين بن اسحق أُنْدَادٌ كثيرون يصح أن نسميهم المترجمين العظام، فضلاً عن حوالي تسعين تلميذاً من تلاميذه تَمَرَسُوا بعمل كهذا، ولكنهم يقلُّون عنه أهمية» وقال طرازي^(٣): «كان الريان حنين شيخ تراجم الإسلام إماماً في العلوم العقلية والنقلية، وخلف مؤلفات جديرة بالاعتبار... وكان له أكثر من تسعين تلميذاً عاونوه في النقل والتأليف نذكر منهم ابنه اسحق بن حنين وابن أخته حبش الأعسم بن الحسن الدمشقي،

(١) ابن أبي أصيبعة: المرجع السابق ص 261.

(٢) مايرهوف: «العلوم والطب» بحث نشر في «تراث الاسلام» بإشراف توماس ارنولد وترجمه جرجيس فتح الله، دار الطليعة، بيروت ط 2 1972، ص ص 445-514.

(٣) فيليب دي طرازي: كتاب «خزائن الكتب» ج 2 ص 764.

وعيسى بن علي، وعيسى بن يحيى ابن ابراهيم وأيوب الأبرش والحجاج بن مطر وغيرهم».

وخلاصة القول أن المؤرخين من عرب ومستشرقين لم يجمعوا على امتداح رجل ووسمه بالعبقرية والنبوغ وسمو الخلق والجد في العمل مثلما أجمعوا على امتداح حنين وقد عللوا أقوالهم بما أثر عنه وعرف به من وفرة مترجماته ومؤلفاته وتنوع موضوعاتها، وطريقته في الترجمة ومنهجه في العمل، وفصاحة لغته العربية، وإبتكاره المقابلات العربية للمصطلحات العلمية، وأمانته في صناعة الطب وجمعه بين النظر والعمل.

لقد كان «بيت الحكمة» علامة بارزة في تاريخ العلم والثقافة عند العرب، وكان حنين بن اسحق من «أعلام» بيت الحكمة، وواحداً من أبرز بناء النهضة العلمية والحضارة العربية الإسلامية التي شَعَّتْ أنوارها على العالم رداً طويلاً من الزمن.